النقد الأنثروبولوجي:

عرّف الناقد الفرنسي "رولان بارت" البنيوية –في مقال شهير له بعنوان "العلم في مواجهة الأدب"، نُشر في الملحق الأدبي لجريدة التايمز، سنة 1967– قائلا بأنها: "في أكثر أشكالها تخصصا، وبالتالي أكثرها ملاءمة وصلة بالموضوع، هي أسلوب وطريقة لتحليل المنتجات الثقافية"[1]، والواقع أنّ النقاد البنيويين الفرنسيين، الذين ارتبط مفهوم "البنيوية" باسمهم وتفكيرهم وكتاباتهم وبحوثهم لا يكادون يتفقون على المقصود من البنيوية: هل هي حركة فكرية أم مذهب فلسفي أم منهج وأسلوب للتفكير والبحث؟

تساءل رولان بارت في مقال شهير له بعنوان: "النشاط البنائي" L'activité structurale نشر عام 1962*، ما البنائية؟

إنها ليست مدرسة ولا حتى حركة**، ولكنه لا يلبث أن يقول في مقال آخر له نُشر عام 1967، في مجلة Cahiers Media: "إنّني أعتقد أنّ مصطلح البنائية يجب أن يقتصر استخدامه للإشارة إلى حركة منهجية تُقرُّ على وجه التحديد بعلاقتها باللغويات"[2]، كذلك نجد موقف عميد البنائيين الفرنسيين "كلود ليفي شتراوس" في أعماله الأساسية النقدية في ميدان الأنثروبولوجيا، الذي قال بأن البنائية أسلوب ومنهج للتفكير والبحث، على اعتبارها منهجا يمكن اتباعه وتطبيقه في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية الأخرى.

احتلت البنيوية الفرنسية مكانة هامة في الساحة النقدية الحداثية، بعد تطبيق عالم الأنثربولوجيا البنيوية "كلود ليفي شتراوس***" مبادئ علم اللغة التي أقرّها دي سوسير في دراسة الظواهر الشعبية والمعتقدات، مثل الأساطير والطقوس / علاقات القرابة / تقاليد الطعام؛ إذ "فُهمت هذه بوصفها أنظمة دالة، ومن ثم مُهيأة لنمطٍ لغوي من التحليل، لم يُركَزْ فيه الانتباه على المسائل التجريبية أو الوظيفية، بل على الأسطورة أو الطُقس، بوصفهما منظومة من العلاقات أبدع فيها المعنى من خلال اختلافات بين العناصر الدالة"[3]، فاستخدام اللغة بوصفها أنموذجا لفهم مظاهر الحقيقة التي هي بدورها غير لغوية، جعل من البنيوية بديلا قويا لمناهج التحليل الوضعية أو التجريبية ممثلة في النقد العلمي.

بهذا بدا الأدب مناسبا تماما للتناول البنيوي؛ لأنه مُركّبٌ تماما من اللغة، لـ"يميل النقد البنيوي إلى تأكيد نظام التقاليد، الذي يجعل الأدب مُمكنا، وإلى إعطاء قدر قليل من الأهمية للاهتمامات المتصلة بالمؤلف

أو الاهتمامات التاريخية أو لمسائل المعنى أو المرجع"[4]، وفي مقال شهير عن "التحليل البنائي في اللغويات وفي الأنثروبولوجيا" L'Analyse Structurale en linguistique et en Anthropologie يؤكد كلود ليفي شتراوس أنّ في إمكان المُتخصص في الأنثروبولوجيا أنْ يُحدث ثورة فونولوجية في مجال تخصصه، إنْ هو احتذى بحوثه مثلما يفعل عالم اللغويات****، والواقع أنه على الرغم من كل ما قيل ويقال عن جهود شتراوس النقدية، يبقى هو البداية الحقيقية للاتجاه النقدي البنيوي الفرنسي، في كتابه الأساسي عن "الأبنية الأولية للقرابة"، باعتباره "القوة الدافعة وراء ذلك الاتجاه الذي أصبح حركة فكرية مسيطرة على الفكر الفرنسي وبخاصة في الستينيات، ومنهجا للتفكير والبحث"[5].

تعتبر اللغة وسيلة أساسية تميز الإنسان عن غيره من الكائنات، فهو ينفرد من دونها باللغة التي تعتبر في الوقت ذاته أقوى وأكمل أداة للاتصال الرمزي مُتاحة للجنس البشري، وشتراوس صرّح بأنّ دي سوسير هو أحد اثنين ممن تأثرا بهما معرفيا وفكريا، وعليه درسَ الظواهر الأنثربولوجية كما لو أنها لغات؛ أي أنه درس تلك الظواهر بوصفها نُظما، كنظام القرابة ونظام الطوطمية ونظام الأساطير، مركزا جهده المعرفي والفكري "على العلاقات القائمة بين الوحدات المختلفة لكل نظام، وكيف أنّ وظيفة ما قد يبدو أنه للوهلة الأولى هو الوحدة ذاتها تتباين مع تباين العلاقات التي تدخل بها مع سواها من الوحدات، ويبدو هذا التباين على أشدّه عندما نأتي إلى تفسير العناصر الرمزية في أسطورة من الأساطير؛ لأن الكثيرين منا يميلون إلى الاعتقاد بأنّ الرموز كميات ثابتة تخضع حيثما وردت إلى تفسير واحد"[6]، فالمعنى إذن سيتحدّد انطلاقا من المكان الذي سوف تحتله هذه الرموز، ضمن شبكة العلاقات التي تتضمنها تلك الأسطورة بالذات.

وإذا ما أردنا تتبع المعالم العامة لمشروع الأنثروبولوجيا البنيوية عند كلود ليفي شتراوس، فمن الممكن أن نتحدّث قليلا عن المصادر الفكرية والمعالم العامة لتطور نظريته، وذلك عبر ما قاله أو صرّح به مباشرة في مؤلفاته، فمن الناحية التاريخية يُعتبر مُؤلَفهُ "الأنثروبولوجيا البنيوية" Structural Anthropology" (1958) سابقٌ في صدوره على كتابيه: "الطوطمية" "Totemism" (1962) و"العقل الوحشي" "The Savage Mind" (1962)، وبهذا يكون اسم الأنثروبولوجيا البنيوية أسبق شيوعا*****.

الأنثروبولوجيا البنيوية عبارة عن كتاب اشتمل على مقالات سبق أن نشرها ليفي شتراوس في مجلات أكاديمية، ليُعيد تجميعها في كتاب، يُعدُّ بمثابة البداية الفعلية لتفكير جدي نحو بلورة إطار فلسفي ومنهجي لتحليله البنيوي.

كما نجد كذلك أنّ كتابيه "العقل الوحشي" و"الطوطمية" قد شكّلا المرحلة الثانية من حياته العلمية، حيث كرّس من خلالهما عمله لدراسة التصورات الدينية والميثولوجية، فالمُتتبعُ لتطور المشروع البنيوي عنده يلاحظ أنه قد وضع في هذين المؤلفين جميع أدواته المنهجية وفق تصوره البنيوي، لإثبات أنّ "وحدة العقل البشري وآليات عمله إنما هي واحدة، سواء في المجتمعات البدائية أو المعقدة"[7]، ففي تركيزه في كتابه "العقل الوحشي" على موضوعات: التنظيم القبلي / الطوطمية / قوانين الزواج / السحر / الأسطورة / نُظُمُ المحرمات / الطقوس، أراد شتراوس إثبات سيادة قوانين واحدة تتحكم في اللاشعور، تلك القوانين التي طالما أثبت عالم اللسانيات فيرديناند دي سوسير وظيفتها على المستوى العقلي في مجال عمل اللغة.

ومنه فأعمال وإنجازات شتراوس تعدّ خير دليل على تأثر البنيويين الفرنسيين بمنهج اللغويات، ولكن على الرغم من كل ما تتميز به هذه الأعمال من وضوح وعمق ومنهجية فإنها تدور في الأغلب في مجال واحد فقط هو الثقافة البدائية، فلم يكد يخرج في كتاباته عن مجال تخصصه الدقيق الأنثروبولوجيا، وليس من شك في أنّ "التركيز الشديد على هذا المجال المُحدّد هو الذي أتاح له الفرصة لأن يعالج في دقة وعمق مشكلات المنهج، ويُبيّن العلاقة المنهجية الوثيقة بين الأنثروبولوجيا واللغويات"[8]؛ إذ "يدّعي أنّ علينا وجوب اعتبار "تقاليد الزواج ونُظم القرابة نوعا من اللغة أو مجموعة من الإجراءات التي تسمح بإقامة نوع من أنواع الاتصال بين الأفراد والجماعات، ولا يعني كون العامل الوسيط في هذه الحالة هو نساء المجموعة اللواتي يتداولن بيت العشائر Clans والسلالات أو العائلات، بدلا من كلمات المجموعة التي تتداول بين الأفراد، لا يعني ذلك تغيير الحقيقة القائلة إنّ الناحية الأساسية في هذه الظاهرة تظل هي هي في الحالتين"[9]، حيث طبق رؤيته هذه في كل دراساته وبحوثه تقريبا، بداية بكتابه "أحزان مدارية" Tropiqyes Tristes الصادر سنة 1955، والذي يعتبر سيرة ذاتية فلسفية له، مرورا بكتابه "أحاديثه" Conversation مع جورج شاربونييه، الصادر سنة 1961، وصولا إلى ما يقرب نصف مقالات كتابه "الأنثروبولوجيا البنيوية" الجزء الأول Structurai Anthropoloy، الذي نشر سنة 1958، وكتابه " الأنثروبولوجيا البنيوية" الجزء الثاني، الذي نشر سنة 1973.

كما نجد كذلك الناقد الفرنسي رولان بارت، الذي قد أفلح بكتاباته الكثيرة المتنوعة إلى أبعد الحدود، خاصة مع انتقالاته العديدة بين مختلف الاتجاهات الفكرية، وعلى الرغم من أنه يرفض أن يتم تصنيفه ضمن البنائيين أو في مدرسة فكرية واحدة، إلاّ أن كتاباته تعكس مدى تأثره الشديد بعلم اللغة الحديث، وبوجه خاص لغويات دي سوسير، ولعل بارت هو أفضل من مثّل التقارب بين البنيوية وعلم العلامات، ولقد كانت "اللغة هي أداة بارت في التعبير عن معالجته البنائية للموضوعات التي يكتب عنها، كما كان يرى أنّ الذي يُميّز الكاتب البنائي الملتزم هو استخدامه مصطلحات فنية يستمدها من اللغويات البنائية"[10]، إذ كان له أسلوب خاص ملئ ومتميز بالألفاظ والتعبيرات اللغوية الجديدة، التي ميزتها الدقة في الاختيار، بصفتها مصطلحات تؤلف في مجموعها ما يطلق عليه "معجم الدلالة" léxique de signification، ومُستمدة في معظمها من قاموس دي سوسير اللساني (اللغة الطبيعية / الإنسانية)، ما دفع بارت إلى النظر إلى العالم بكل ما فيه على أنه مجرد علامات، Signes؛ لأن "الإنسان يحيا بالعلامات والرموز التي تتجمع وتنتظم معا في شكل أنساق مختلفة تُعرّفُ أحيانا باسم الأدب، وأحيانا أخرى باسم السياسة أو الدين أو ما إلى ذلك، ولكنها تعتمد كلها في آخر الأمر على اللغة، التي هي نسق العلامات الأساسي"[11]، ليؤدي بذلك اتصال البنائية بالدراسات اللغوية إلى قيام "علم العلامات" La Sémiologie، وهو العلم الذي سيهتم بتطبيق مناهج اللغويات في مجال الأنساق اللغوية وغير اللغوية، والواقع أنّ رولان بارت****** وجماعة Tel Quel أفلحوا في تطوير سيميولوجيا مستقلة عن كتابات كلود ليفي شتراوس، وعليه فالظواهر الاجتماعية والثقافية ليست مجرد أحداث أو أشياء مادية، وإنما هي بالأحرى مفعمة بالمعاني، ويمكن اعتبارها علامات، فبارت مثلا يعتبر المجتمع مشهدا مسرحيا، يمكن شرحُه وتفسيره عن طريق كشفِ واستخلاص القوانين المستخدمة، لإخفاء ما فيه من تصنع وزيف، لذا أولى جانبا كبيرا من الاهتمام لدراسة عديد الممارسات السائدة في حياتنا اليومية، والتي تؤلف بشكل عام ما يمكن تسميته بالثقافة الجماهيرية، باعتبارها تشغل في حياتنا اليومية المكانة نفسها التي تشغلها الأساطير في ثقافات المجتمعات البدائية، فهي تعتبر بالنسبة لرولان بارت نمطا من "العلامات" Signes الدالة على ثقافة الجماهير، و"دراستها تتطلب تحديد الفئات والأنماط والتمايزات التي عن طريقها يمكن للثقافة أنْ تُعطي معنى للعالم والحياة ... تقتضي هذه الدراسة البحث عن الأوضاع المُتعارف عليها، والتي يستعين بها المجتمع لإضفاء المعنى على تلك الممارسات والأحداث التي تؤلف الثقافة الجماهيرية

أو الشعبية"[12]، وما يُلاحظ غالبا أنّ عديد المعاني السائدة في المجتمع، والتي نعتبرها طبيعية / عادية هي في حقيقة الأمر حصيلة تاريخية للنسق الثقافي السائد في المجتمع.

وهذا ما سعى إليه في الكشفِ عن النسق الثقافي السائد في المجتمع، بدراسة عديد الأسس التي قامت عليها الأساطير وتحليلها، بإتباع منهج خاص مستمد من علم العلامات Sémiologie، وذلك بـ"التمييز بين نوعين من الدلالة أو المعنى، وهما: المعنى الحرفي Denotation للعلامة أو الإشارة، والمعنى الأسطوري Connotation الذي يمكن أن نضعه ضمن الرمزيات؛ أي ما ترمز إليه الأسطورة، وهذا المعنى الأسطوري معنى إضافي في الحقيقة، يوجد إلى جانب المعنى الحرفي للعلامة"[13]، مثال ذلك دراستهُ لإحدى العلامات التي ظهرت في إحدى المجلات الفرنسية، وهي عبارة عن صورة بالألوان لجندي أسود في ملابسه العسكرية، يُحيي العلم الفرنسي ... هذه العلامة قد لا توحي للإنسان العادي أو للعقل الساذج حسب تعبيره، بأكثر من دلالتها الظاهرية أو معناها الحرفي، أما المعنى الحقيقي فهو شيء مختلف تماما عن ذلك، والكشف عن ذلك المعنى الحقيقي يتطلب أن نعرف أين ظهرت الصورة ومتى ظهرت؟ والواقع أنّ الصورة ظهرت على غلاف مجلة "باري ماتش" Paris Matche، وبذلك تُصبح المجلة هي حاملة المعنى الدال Signifiant؛ أي أنّ دلالة الصورة تُستمدُ ليس فقط من العناصر المختلفة التي تتكون منها، ولكن أيضا من المجلة ككل، ثم يأتي بعد ذلك البحث عن المعنى المقصود أو المتضمن في هذه العلامة الدالة؛ أي البحث عن المدلول، وهنا يرى بارت أنّ المعنى الخفي أو الرمزي للصورة هو النزعة الاستعمارية الفرنسية، وكل ذلك لن يمكن الوصول إليه إلاّ إذا عرفنا المُلابسات التاريخية التي عاصرت نشر الصورة على غلاف تلك المجلة بالذات، (فترة ضعف الإمبراطورية الفرنسية وتفككها، وانقسام الرأي العام في فرنسا حول منح المستعمرات استقلالها)، بينما كانت المجلة ذاتها تؤيد الحكم الاستعماري، وبذلك كان الجندي الأسود يرمز إلى اندماج أبناء المستعمرات السود مع جنود فرنسا البيض، تحت لواء العَلم الفرنسي؛ أيّ أنّ العلامة الدالة (الصورة) تحمل رسالة يصفها بارت بأنها تستحق الازدراء، ومؤداها أنّ فرنسا إمبراطورية عظيمة، وأنّ أبناءها جميعا –بصرف النظر عن لون بشرتهم– يخدمون تحت العلم الفرنسي بولاء وإخلاص، وأنه ليس هناك من ردٍ على أعداء الاستعمار المزعوم أبلغَ وأوقع من هذا هذا الحماس الذي يُبديه الجندي الأسود في خدمة أسياده ومضطهديه المزعومين[14]، ليكون السؤال المطروح هنا: كيف استطاع رولان بارت أن يستفيد من علم العلامات في دراسة وتحليل أحد مظاهر الثقافة الشعبية / الجماهيرية؟

لنجد هذا الأسلوب من التحليل في المقالات 45 التي ضمّها كتاب "أساطير"، كما أنه هو الأسلوب الذي يتبعه في كتابه "أنساق الموضة" Système de la mode، كي يصل منه إلى تبيين أنّ ثمة تفسيرات أخرى ثقافية تكمن وراء ما قد يبدو للوهلة الأولى أنه ثقافة طبيعية.

لتبقى بذلك جهود الباحث كلود ليفي شتراوس في النقد البنيوي مهمة ورائدة ضمن الدراسات النقدية للسرد.

هوامش المحاضرة:

1- أحمد أبوزيد: المدخل إلى البنائية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، 1995، ط1، ص67.

*** نشر مقاله هذا لاحقا في كتابه Essais Critiques .**

**** معظم النقاد الغرب والعرب البنيويين لا يشعرون بأنّ ثمة شيئا من وحدة المذهب أو الالتزام يربط منهجهم تنظيرا وإجراء في بحوثهم وكتبهم.**

2-ينظر مقدمة كتاب المدخل إلى البنائية للدكتور أحمد بوزيد.

***** عالم أنثروبولوجيا فرنسي، اهتم في بحوثه ومؤلفاته بدراسة ثقافات الشعوب من طقوس وعادات وموروث أسطوري.**

3- ك. م. نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين، تر: عيسى علي العاكوب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، 1996، ط1، ص 137.

4-المرجع نفسه، ص137.

****** هناك من يربط نجاح ليفي شتراوس إلى استثماره منهج اللغويات البنائي في دراسته وبحوثه الأنثروبولوجية، فقد أتاحت اللغويات البنائية أن تبرُز كمنهج يمكن استخدامه وتطبيقه في كل مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية.**

5- أحمد أبوزيد: المدخل إلى البنائية، مرجع سابق، ص 68.

6- جون ستروك: البنيوية وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى دريدا، تر: جابر عصفور، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 206، فبراير 1996، ص 16.

******* أتى اسم الأنثروبولوجيا البنيوية على شرح المنهج التحليلي للأنثروبولوجيا البنيوية، من خلال تناول رائده لتطبيقات هذا المنهج في عدد من الميادين الرئيسية للأنثروبولوجيا كاللغة والقرابة والتنظيم الاجتماعي والفن والدين والسحر والبناء الاجتماعي.**

7- عبد الله عبد الرحمان يتيم: كلود ليفي شتروس: قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر، بيت القرآن، المنامة، البحرين، 1998، ط1، ص 45.

8- أحمد أبوزيد: المدخل إلى البنائية، مرجع سابق، ص 101.

9- جون ستروك: البنيوية وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى دريدا، مرجع سابق، ص30.

10- المرجع نفسه، 102.

11- المرجع نفسه، 103.

******** كان رولان بارت أفضل من مثّل التقارب بين البنائية وعلم العلامات Sémiologie، خاصة وأنه كان يشغل كرسي "علم العلامات"، الذي أُنشئ له خصيصا في الكوليج دو فرانس حتى وفاته.**

12- أحمد أبوزيد: المدخل إلى البنائية، مرجع سابق، ص 103.

13- المرجع نفسه، ص 104.

14- المرجع نفسه، ص ص 104-105.